الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[الفيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

الأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —

وكان تشابل عنيداً ضيق الصدر ، وكانت وظيفته تقتضيه ألا يتساهل فيما كلفته به إدارة الكلية ، ولم يكن فى وسعه أن يتغاضى عن تمرد ذلك الطالب وإلا تعرض لمؤاخذة القائمين بالأمر ، فما يحب هؤلاء أن تشيع العدوى فى بقية الطلاب ؛ لهذا لم يكن بد من معاقبة جون ملتن عل فى ذلك رادعاً له وعبرة لغيره .

وعوقب الفتى بابعاده من الكلية إلى حين ؛ وقيل إنه عوقب بالضرب إلى جانب ذلك ، وإن كان أكثر المترجمين له ينكرون ذلك أو يستبعدونه ؛ على أن الضرب فى ذاته يومئذ كان أمراً يقع فى الكلية ، فلم تكن العقوبة البدنية محرمة حتى فى الكلية .

وقضى ملتن فترة النفى فى لندن غير آبه بما حدث ؛ يظهر فى كل حين عدم مبالاته ، فلن تنال منه قسوة مدرس يتجنى عليه ، كما ذكر فى بعض رسائله إلى « ديوداتى » أحد خلانه فى مدرسة سنت بول ؛ وإنه ليفضى إلى ديوداتى أنه جد سعيد بأبعاده عن كمبردج فما يطيب بها المقام لرهط أبولو ؛ وأنه يستمتع بفراغه فيمشى المسارح كثيراً ، ويقرأ من الكتب ما يحب غير مقيد بقيود تشابل ؛ وأنه يسرح الطرف فى شوارع المدينة إذ يذرعها جيئة وذهابا ، ويمد عينيه إلى حسان لندن وقد لُحْن له بعد أيامه الجافة فى كمبردج أروع مما كن حسناً وأشد فتنة ، حتى إنه ليرى من الحكمة أن يبادر بالرحيل قبل أن تمسه جراح كيوبيد .

وتكشف لنا رسائله المنظومة والمنثورة إلى صاحبه عن بعض نوازع نفسه ، فهو يحب المسرح ويكثر غشيانه ؛ ولن يفعل ذلك متزمت يرى من أدلة الاستقامة أن يحرم على نفسه زينة الله التى أخرج لعباده ؛ وهو يمد عينيه إلى الغيد ولكنه هنا يخشى الغواية فيطلب النجاة ؛ وكان حريا أن يقع فى حبالهن وأن يفتن فى حباله بما توفر له من الجمال والوجاهة وأناقة الملبس ورشاقة الجسم ، ولكنه حريص على عفته متمسك بطهره ، تهفو إلى الجمال روحه إلا أنه يحلق ويأبى أن يرد ...

وعاد ملتن إلى الكلية ، وقد انقضى أمر النفى ؛ ولكنه لم يعد إلى تشابل فقد نقل إلى غيره ، وهو إجراء له مغزاه ، إذ لم يكن مثل هذا النقل بالعمل المعتاد فى تلك الأيام ، ومنه يفهم أن القائمين على أمر الكلية يحملون تشابل شيئاً من اللوم .

ولم يفل النفى حدته ولا أوهن نشاطه ولا أذل كبرياءه ؛ وعادت نفسه الحرة تنشد الاصلاح ، وانطلق لسانه الفصيح يندد بما يرى من عيوب أيا كان أصحابها ؛ فلا تنقطع له شكوى ، ولا يفتر له نقد .

ونال أقرانه شىء غير قليل من نقده ؛ وكانوا أحرياء إلا قليلا منهم ، ألا يرتاحوا إليه ، وإن أعجبهم كثير من خصاله وراقهم شخصه ، فأن تمسكه بالفضيلة وتشدده فى الطهر والعفة هو فى ذاته تأنيب صامت لما يظهرون من نقائص ، ناهيك بما يقول فى كل فرصة ، وبما يرسله كل آونة من عبارات التهكم أو نظرات الازدراء . وقف يخطب ذات مرة فقال « كيف آمل أن أجر فيكم الرغبة إلى الخير وأنا أرى فى حفل عظيم كهذا الحفل وجوهاً تنطق بالعداوة يكاد يبلغ عددها عدد ما هنا من رؤوس » .

وكان جزاؤه على ذلك العنت من الكثير من طلاب الكلية ، فأخذوا على طريقة الطلاب يعابثونه ويهوشون عليه ويلاقونه أينما تكلم بشغبهم وزياطهم ، ويسخرون منه كما سخر منهم ، وجعلوا عفته موضعاً لاستهزائهم به ، وكانوا قد أطلقوا عليه من

قبل إسم « السيدة » لما رأوا من رقته وظرفه ودمائته ، فأخذوا الآن يعيدون هذه التسمية فى موضع الأعنات والاستهزاء ، فاذا سأل أحدهم صاحبه عنه قال هل رأيت سيدة الكلية ، أوهل رأيت سيدة كريست ، ويقصدون أن يسموه هذا وهو على مقربة منهم ليغيظوه ، فيكظم غيظه ويحاول أن يغيظهم بترفعه عنهم وازدرائه إياهم .

ولم يأبه ملتن بما يقولون ؛ ففيه على رقة حاشيته صبر على النضال ، يلذ له الأذى فى سبيل إعلان رأيه والدفاع عن مبدئه ، ولذلك نراه ينهض ذات مرة خطيباً ، فيشير فى خطابه إلى هذه التسمية ، فيقول متهكما إنه يعتقد أن ليس مردها إلى حسن وجهه وقصر قامته وجمال هيكله فحسب ، ولكن إلى طهره كذلك ورقة حاشيته ودمائته وحسن سلوكه ؛ ثم يتساءل فى ازدراء عما إذا كان يقصر اسم الرجولة على من كانت لهم القدرة أن يعبوا أقداحا كبيرة من الخمر ، أو على الفلاحين الذين غلظت أيديهم وجدت من أثر المحراث ، أوعلى من يبرهنون على رجولتهم بالعربدة والفجور والفسوق ؟ ... ويستخذى الجميع أمام حماسته وشجاعته ورباطة جأشه .

ولا يفوته أن يقارن بين نفسه وبين من اتهموا قبله من النابهين الأعلام بمثل ما اتهم به ، قائلا إن ديموستين نفسه لم ينج من اتهام أعدائه إياه بالنقص فى رجولته !

والحق أن مرد هذه التسمية لم يكن إلى ضعف فيه ولا إلى خور ، فقد كان منذ يفاعته شجاع القلب والرأى ، ولسوف يقيم الدليل فى مستقبل أيامه على أنه ماحمل القلم يوما أشجع منه ؛ وكان فى الكلية لا يهمل المران على استعمال سيفه يوماً ؛ وكان لا يرهب التحدى ، ولا يحب أن يصانع ذا غلظة أو يتواضع لذى كبرة ، وإن كان فى غير ذلك من المواقف جم الأدب مزموق الوداعة ...

وما سماه أقرانه هذا الاسم أول الأمر إلا لأنهم أساءوا فهم وداعته ورقة حاشيته ، ثم عادوا يرددونه رغبة منهم فى إغاظته وإمعانا فى إعنائه ، ولا يجد الشباب عادة فى الزراية على من لا يتابعهم إلى ما يحبون من العبث واللهو الخشن أنكى من نعته بالأنوثة .

وكان مرد عفته واعتصامه بالفضيلة إلى معنى طريف يضاف إلى وازع الدين ودواعى الخلق ؛ وذلك أنه كان يرى أن الشاعر الذى يعد نفسه لرسالة سامية ، ينبغى قبل كل شىء أن يكون أهلا لما يستشرف له ، ولن يكون لذلك أهلا إلا إذا سمت نفسه وخلت من الأوضار ، واتصلت فى كل متجه بالمثل الأعلى لاتتخلف قط عنه ، أو على حد تعبيره ينبغى أن يكون هو قصيدة سامية .

ولقد نجح ملتن نجاحا عظيما فى ضبط نفسه وكبح جماحها ، على الرغم من توقد عاطفته وشاعرية روحه ، وتفهمه أسرار الجمال ، وتفطنه إلى موطن الفتنة فى دنيا الطبيعة وفى دنيا الناس ، هذا إلى ما اتصف به من فراهة الجمال وروعة الشباب ؛ ولذلك فأن سيطرته على نفسه مع هذا أعظم من أن تكون نجاحا ، فأنها تشبه أن تكون معجزة .

وحق لهذا الشاب أن يفخر بقهر نفسه ، أو على الأصح بقهر شهوات نفسه ، فقد أطلق نفسه على سجيتها بعد إذ جنبها مزالق الضلال ومهاوى الفتنة لتنطلق حرة فى مسارح الجمال ومواطن الرأى ...

وكان ملتن يؤمن بأن من يسمو بنفسه لا بد أن تواتيه قوة خارقة على التعبير عما يريد من معانى السمو ، وبقدر ما يكون من طهر نفسه يكون ما يتوافى له من البيان فيما ينهض لبلوغه من معارج القول

وإلى جانب ذلك كان ملتن كثير الذهاب بنفسه ، يعتقد أنه فوق غيره فى الذكاء والعلم ، يتداخله منذ صغره شعور قوى بتفوقه وامتيازه ، وهو نوع من الاعتداد بالنفس حرى أن يسمى الكبرياء العقلية ، جعل ملتن الشاعر الشاب يؤمن بفكرة هى تغليب العقل على العاطفة ، وهذه هى الحكمة ، ثم يأخذ نفسه من غير هوادة بما تقتضيه منه الفكرة ، فلا ينقاد لعواطفه كيما يعيش حكيما معتصما بالزهد والعفة

وإنه ليعتقد أنه خلق لعظيمة من العظائم فى دنيا الشعر ، وأن الزمن يهيئه فيعزله عن الناس ويرفعه فوقهم درجات ليتسنى له أن يأتى بما لا يستطيعون أن يأتوا به ، وكأن ولوعه بالأدب وشغفه بالبيان وأستمساكه بالفضيلة ، كل ذلك إرهاص يكون بعده الإعجاز !

ولم تصرف ملتن عنايته بالأدب والشعر عما فرضت عليه الكلية من دروس . كذلك لم تصرفه عنها كراهته إياها ودعوته القائمين بالأمر إلى إصلاحها ، وتوجيه الطاعن إليها ، فهى أمر لا بد منه إذا شاء أن يظفر بالأجازة الجامعية ؛ وهو منذ صغره دؤوب على العمل صبور جليد ، فما ينوء اليوم بأن يجمع بين دروسه الرسمية ومتعة نفسه من الأدب والشعر وغيرهما مما لايدخل فى محيط الدروس المقررة .

ويشهد أكثر القائمين على أمر الكلية أنه طالب مجد فى عمله ، نشط فى طلب المزيد من العلم ، يحب أن يحيط بما يدرس إحاطة تامة ، ولولا نزعته الاستقلالية ونفوره من القيود ورغبته أن يختار الوقت الذى يحب لينجز ما كلف من عمل ، ما شكا منه أحد ، ولا كان بينه وبين نشابل عريفه الأول ما كان من شحناء ونابذ .

ولم يتخلف ملتن عن أقرانه على الرغم من فترة إبعاده عن الكلية ، فحصل عند نهاية الأجل المقرر للدراسة الأولى على درجته العلمية الأولى ، وكان اللاهوت هو العلم الأساسى الذى اختار من أول الأمر أن يمتحن فيه ، ويحصل على درجته ، فدرسه ودرس ما يتصل به أو يتفرع منه من معرفة .

ولئن درس اللاهوت على عسره دراسة جد ، واستوعب ما يحيط به ، فإن قلبه كان يجد العزاء فى مجال آخر محبب إليه ، وأى مجال أحب إليه من الشعر وأنغامه وأحلامه ؟ وهل يشغله عنه شاغل مهما جل ، وهو من افتتن به وظن أنه خلق له منذ سن العاشرة ؟ لذلك كان يعمد إلى قيثارته يغنى عليها أناشيده كلما نفض من اللاهوت يده !

ففى أول سنة له فى الكلية ، وقد دخل فى سنته الثامنة عشرة ، نظم الفتى باللاتينية — أول ما نظم — قصائد ست ، ثم نظم واحدة بالإنجليزية ، ولعله اختار اللاتينية لأنها لغة أوفيد ، وهو به متعلق مشغوف منذ صغره ؛ وكانت معظم أشعاره اللاتينية مرائى فى مناسبات على نحو ما يفعل عادة من يستطيع النظم من الطلاب ؛ ولكن طموح ملتن وثقته فى نفسه ألقيا فى روعه أنه شاعر حقاً ، وأنه لا يتكلف النظم كما يتكلفه غيره ، وأنه ما يسطر على القرطاس شيئاً إلا استحق أن يعيش وأن يشيع فى الأدباء ! ولكن الذين كتبوا تاريخ حياته ، ممن لهم علم باللاتينية ، يرون التقليد فى هذه الباكورة يغلب على الأصالة . وكان ملتن يقلد أوفيد ، وقد اتجه بقلبه وخياله إليه ، كما يصنع الأفراخ النواهض من الشعراء أن يتأثر كل منهم فى صدر شبابه بواحد ممن حلقوا قبلهم فى سماء الشعر !

وكانت القصيدة الإنجليزية كذلك مرثية بكى بها الشاعر الشاب طفلة من ذوى قرباه ، وعنوانها « فى موت طفلة جميلة أودت بها سملة » . ونلمس فى هذه المرثية خصائص ملتن الأولى فى الشعر : فموسيقاه حلوة ، وألفاظه تنساب فى يسر وإشراق ، وإن لها فى السمع لجرساً ساحراً جميلا ... وهو كثير الإشارة إلى الميثولوجيا الإغريقية والمسيحية ، يكثر من ذكر الآلهة ؛ وهو يأتى بالصفة تتداعى بها إلى الذهن المعانى المتصلة بما يصف فى قوة ومهارة ، فتوحى بذلك الأبيات القليلة معانى كثيرة ، بل لقد يجعل للكلمة الواحدة معنى واسعاً بما يسبقها أو يلحقها به من الكلام ، فيرمز للموت هنا مثلا بالشتاء ، وقد ناجى الطفلة فى مبتهل القصيدة باسم زهرة من أشهر زهرات الربيع يكفى النطق بها لتذكر الأنفس الربيع وموسمه الحافل ؛ ثم يعود فيتحدث عن الطفلة كأنها ملاك عاد إلى أفقه ، وقد اتخذ صورة الإنسان لحظة ، ليرى الناس كيف يحتقرون هذه الأرض ، وكيف تهفو إلى السماوات أرواحهم ، ويسأل أمها تبعاً لذلك ألا تحزن ، فما فقدت شيئاً ... !

وبعد ذلك بسنتين ينظم باللاتينية أولى غرامياته ، وفيها يذكر أن عينيه وقعتا فى سرب من حسان لندن على فتاة استأثرت بلبه ونفذت نظرتها إلى أعماق قلبه ... فتاة هى فينوس حسناً وشكلا ... وسرعان ما جرحه كيوبيد بها فى ألف موضع من جسمه ... ثم غابت عن بصره وتولت وقد شغفته حباً ... فأحس كأنه يحترق وكأن اللهب يحتويه ... ولم يرها بعد ذلك أبداً ، وأصبح بعدها كغيره من العشاق ينعم بشقاء حلو !

وأردف هذه القصيدة بأخرى لاتينية غرامية كذلك يصف فيها الحب ، ولا يشير فيها إلى موقف بعينه كما فعل فى سالفتها ، ولكن ... إلى الهوى وأسقامه وأحلامه ...

ويحرص ملتن دائماً أن يسمو بحبه ، فما تنم كلماته ولا إشاراته عما يستهجن من قول أو فعل ، وما يصدر عن مثله إلا كل سام نبيل ، وقد جعل سمو النفس وطهرها كما رأينا وسيلة إلى سمو التعبير ؛ على أنه يفصح أحياناً عما يظهره أنه يحس شيئاً من المرح إذ يصف هيام الحب وأحلامه ومتعه ؛ ولعله أراد بذلك أن يوحى إلى لداته أنه يتخفف من تزمته ، أو مما يأخذونه على أنه تزمت منه ، وما هو فيما يرى إلا التوقر والاحتشام والجد ؛ ولقد أشار فى بعض خطبه إلى شىء من هذا ، فجهر بأنه اليوم يحبذ المرح والسرور ، وإن كان قصير الباع فى التندر والفاكهة ؛ ولعله كذلك يجد فى هذا المرح الذى يصفُ والذى يحبذ ، وفى هذا الحب الذى يصوغ ألحانه ، ما يرد به على من أطلقوا عليه ذلك الإسم السخيف الذى ضايقه بعض الثقلاء به !

(يتبع) العقيف